محمود درويش (٢)
ندوة ودراسات

درويش وبيروت: الخَيْمة والغَيْمة والنَّجْمة

□ صقر أبو فخر

لا أجازف إذا قلتُ إنّ الفلسطينيين لم يُجْمعوا على أيّ أمر أو زعيم مثلما أَجْمعوا على محمود درويش وقصائده المدهشة. لقد شُغِفوا به وبحضوره الآسر وبأشعاره معًا، فطوّقوه بأزاهيرهم ثم توّجوه ملكًا عليهم. وهذا الأمرُ لم ينلْه، بحسب معرفتي، لا الحاجّ أمين الحسيني ولا جورج حبش ولا ياسر عرفات.

كان عرفات نبيَّ التيه الفلسطيني، وكان حبش نبيَّ الأمل ربّمـــا. لكنّ درويش صنع فلسطين كأبهى ما تكون البلادُ. أحبّه الفلسطينيون[1] لأنّه صَنَعَ في هذا السديم العربي أملاً، وأبدع في هذا العماء المروِّع وعودًا خلاّبةً، وحَوّل أغاني التيه الفلسطيني إلى ملحمةٍ مدهشةٍ للعودة المؤجّلة. وأحبّوه لأنّ في شعره انسيابَ الماء المعمداني في منعطفات «الشريعة» عند الأردن، ونداءَ الرياح الجريحة في قفار بيت لحم، وصوتَ الأيائل المتوثّبة في جبال الخليل. قصائدُه سيمفونيةٌ من الألوان الراقصة والإيقاعات الراعشة، وأشعارُه شلاّلٌ من العبارات المتوتّرة: تضطرب وتهدأ، تَهْمس وتَصْرخ، تغيب وتَحْضر. هكذا كان صوتُه مثلَ احتفالٍ وثنيّ في العراء، وكان هو مثلَ «قصبةٍ ثقبتْها الريحُ فصارت نايًا.»

التجربة الفريدة

برهن لنا درويش أنّ القصيدة قد تكون أقوى من البندقية. وكانت قصائده تشير دومًا إلى انتصار الشعر على السياسة، أيْ إلى هزيمة الواقع أمام الحلم. ولعلّ تجربتَه في لبنان، إبّان الحرب الأهلية، وفقدانَه كثيرًا من الأصدقاء والأحبّة، جعلاه يلتفت إلى ما وراء هذا الموت المجّاني: إلى المعنى اللامرئي الذي يختفي خلف المعنى الظاهر. ولعلّ الشعر العربي المعاصر، ولاسيّما في النصف الثاني من القرن العشرين، لم يَعرفْ شاعرًا احتلّ تلك المكانةَ الرفيعةَ في قلوب الناس مثل درويش. فأدونيس ظلّ شاعرًا متفرِّدًا ومتميّزًا ونخبوياً؛ بينما كانت جموعُ الناس تَزْحف بالآلاف على الأمسيات الشعرية لمحمود درويش، ولم يزاحمْه على هذه الظاهرة إلاّ الشاعرُ السوري الكبير نزار قبّاني. ولعلّ من المفارقة أيضًا أنّ درويش الذي كانت تجربتُه الشعرية تغتني بطريقة مذهلة، وكان يتخلّص بالتدريج من لغته الشعرية التي بدأها في حيفا، كانت «شعبيّتُه» تزداد باطّراد.

بهذا المعنى كان درويش ظاهرةً شعريةً ذاتَ فرادة. ربما تحوّل إلى قدّيس الشعب الفلسطيني وشاعره ومطربه وراوي ذاكرته والرائي الذي ما برح يرمِّم جروحَ الفلسطينيين وهزائمهم، ويقول لهم إنّهم ليسوا عابرين في كلامٍ عابر، بل إنّهم منذورون لأغاني العودة، وإنّ في إمكانهم أن ينتصروا على التيه، وإنّ «هناك ما يستحقّ الحياةَ على هذه الأرض»... على «سيّدة الأرض التي كانت تدعى فلسطين وصارت تدعى فلسطين.»

ما سرُّه الشعريُّ إذًا، هذا السرُّ الذي جعله مثالاً للشعر لا يمكن اجتنابُه، ولا تجاوزُه، ولا تحطيمُه؟ إنّه شاعر مهيمن، وشعره كاشفٌ وفاضح. مهيمنٌ، لأنّ قامته الشعرية باسقةٌ جداً، ولا تدانيها قاماتُ كثيرين من الشعراء. وكاشفٌ، لأنّ الشعر الصافي صار يُقاس بقصائده، ولأنّ شعره صار تحدِّيًا إبداعيّاً لجميعِ مَنْ عاصره أو جاء بعده.

هذا هو سرُّه الشعري على ما أَحْسب. ولهذا تبعه «المريدون،» وبايعوه ملكًا على فلسطين، ووضعوا بين يديه «أحدَ عشرَ كوكبًا.» محمود درويش، الذي سما بالقضية الفلسطينية إلى مصاف القضايا الإنسانية الكبرى، مات بعد أن شاهد، بأمّ عينه، كيف يتناوش هؤلاء العابرون في الليالي الدموية في غزة «حبيبتَه التي

١ ـ أستثني من الفلسطينيين قلّةً بائسةً من ذوي الأدمغة المعادية للمتعة الرفيعة التي يمثّلها شعرُ درويش... قلّةً أهانت الشعرَ والجَمالَ والإبداعَ حينما احتفلتْ بموت درويش، فكأنّها تفتخر بانحطاطِها وابتذالِها.

نهضتْ من نومها» ذاتَ يوم، فكانت فجيعته الأخيرة.[1]

معظم الشعراء العرب كان إبداعُهم الشعري يتوقّف قبل الستّين، وتعيش أشعارُهم اللاحقة على وهج أشعارهم السابقة. لكنّ محمود درويش حالٌ مختلفةٌ. كانت لغتُه تصفو وترقّ وتصبح أكثرَ إدهاشًا كلّما أمعن في السنين؛ فلم يطمئنّ، البتةَ، إلى أيّ إنجاز شعريّ له، بل كان دائمًا يبحث عن أفق جديد بعد كلّ ديوانٍ جديد. ومحمود درويش ربما هو الشاعر العربي الوحيد الذي كان كلُّ ديوان جديد له يمثّل قمةً جديدةً في مسيرته الشعرية المخضّبة بالألم والقلق ووجيف القلب.

الفصول الأربعة

ربما يحلو لبعض النقّاد أن يُقسِّم تجربة درويش تقسيمًا مضمونيّاً. وفي هذه الحال تمتدّ هذه التجربة على ثلاث مراحل:

١ ـ المرحلة الوطنية: وهي بداياته في حيفا حينما أصدر ديوان **عصافير بلا أجنحة** (١٩٦٠) الذي كان مجردَ تمرين على كتابة الشعر. غير أنّ هذه المرحلة تتجلّى، أكثرَ ما تتجلّى، في ديوان **أوراق الزيتون** (١٩٦٤) الذي يُعدّ البدايةَ الحقيقيةَ لمحمود درويش الشاعر، والتي ختمها بديوان **حبيبتي تنهض من نومها** (١٩٧٠).

٢ ـ المرحلة الملحمية: وهي التي تمكّن فيها من رفع المسألة الوطنية إلى مصاف القضايا الكبرى الإنسانية، وفيها تخلّص من لغة البدايات، ثم توّجها بديوان **أحد عشر كوكبًا** (١٩٩٢).

٣ ـ المرحلة الذاتية: بدأتْ هذه المرحلة بديوان **لماذا تركتَ الحصان وحيدًا** (١٩٩٥)، ومال درويش في أواخرها إلى قصيدة النثر، ولاسيَّما في كتابه النثري **أثر الفراشة** (٢٠٠٨). وإذا كان درويش قد مال، على المستوى الشعري، إلى حيوية قصيدة النثر،[2] إلا أنّه كان دائمًا يصرّ على أنّ الإيقاع شرطٌ لتمييز الشعر من النثر، ويؤكّد أنّه لا يستطيع أن يَقْبل الشعرَ من دون الموسيقى (مجلة **المرأة اليوم**، أبو ظبي، ١٤/٨/٢٠٠٨).

مهما يكن الأمر، فإنّ في الإمكان تفصيلَ التجربة الشعرية لمحمود درويش، علاوةً على التقسيم المضموني، على أساس المراحل الزمنية التالية:

١ ـ ما قبل الخروج من فلسطين سنة ١٩٧٠: في هذه المرحلة كتب محمود درويش **أوراق الزيتون** (١٩٦٤)، و**عاشق من فلسطين** (١٩٦٦)، و**آخر الليل** (١٩٦٧)، و**العصافير تموت في الجليل** (١٩٦٩)، و**حبيبتي تنهض من نومها** (١٩٧٠). وقد اشتُهرتْ من قصائد هذه المرحلة: «سجِّلْ أنا عربي» من ديوان **أوراق الزيتون**، و«أحنُّ إلى خبز أمي» من ديوان **عاشق من فلسطين**، و«جنديّ يَحْلم بالزنابق البيضاء،» وقصيدة «وطني يعلّمني حديدَ سلاسلي، عنفَ النسور، ورقّةَ المتفائل» من ديوان **آخر الليل**. وفي نهاية هذه المرحلة خَرَجَ من فلسطين.[3]

٢ ـ ما قبل الخروج من بيروت سنة ١٩٨٢: في هذه المرحلة كتب **أحبُّكِ أو لا أحبُّكِ** (١٩٧٢)، و**محاولة رقم ٧** (١٩٧٣)، و**تلك صورتُها وهذا انتحارُ العاشق** (١٩٧٥). واشتُهرتْ من بين قصائد هذه المرحلة قصيدة «سرحان يَشْرب القهوةَ في الكافيتيريا» من ديوان **أحبُّكِ أو لا أحبُّكِ** و«أحمد الزعتر» من ديوان تلك **صورتُها وهذا انتحارُ العاشق**. وهذه المرحلة كانت الخميرةَ الإبداعيةَ لقصيدته الرائعة «مديح الظلّ العالي» التي أصدرها في سنة ١٩٨٣.

٣ ـ ما قبل الخروج من الموت[4] في سنة ١٩٩٨: وفيها كتب، علاوة على «مديح الظلّ العالي» وفيها قصيدة «بيروت،» ديوانَ **وردٌ أقلّ** (١٩٨٦)، و**هي أغنية هي أغنية** (١٩٨٦)، و**أرى ما أريد** (١٩٩٠)، و**أحد عشر كوكبًا** (١٩٩٢)، و**لماذا تركت الحصان وحيدًا** (١٩٩٥). واشتُهرتْ قصيدةُ «ربِّ الأيائل يا أبي» من ديوان **أرى ما أريد**.

٤ ـ ما قبل الخروج من الحياة في سنة ٢٠٠٨: وفيها كتب أجملَ أشعاره ونصوصه، بدءًا من **سرير الغريبة** (١٩٩٩)، و**جدارية** (١٩٩٩)، و**حالة حصار** (٢٠٠٢)، و**لا تعتذرْ عمّا فعلت** (٢٠٠٤)، و**كزهر اللوز أبو أبعد** (٢٠٠٥). وفي نهاية هذه المرحلة «زهق» من معايشةِ الموت وقال: «وداعًا... وداعًا لشعر الألم.»

---

١ ـ كتب محمود درويش هجاءً لما وقع في غزة في ١٤/٦/٢٠٠٧ جاء فيه: «لولا الحياءُ والظلام، لزرتُ غزة دون أن أعرف الطريقَ إلى بيت أبي سفيان الجديد، ولا اسم النبيّ الجديد. ولولا أنّ محمدًا هو خاتمُ الأنبياء، لصار لكلّ عصابةٍ نبيّ، ولكلّ صحابيّ ميليشيا... ما حاجتُنا للنرجس ما دمنا فلسطينيين، وما دمنا لا نفرّق بين الجامع والجامعة لأنّهما من جذرٍ لغويّ واحد؟ وما حاجتُنا للدولة ما دامت هي والأيام إلى مصيرٍ واحد؟»

٢ ـ كان يحبّ قصائد سعدي يوسف وأمجد ناصر وعبّاس بيضون ووليد خازندار وسليم بركات.

٣ ـ غادر محمود درويش تل أبيب إلى موسكو في ٥/٣/١٩٧٠، وأقام فيها أحدَ عشرَ شهرًا. وفي شباط ١٩٧١ غادر موسكو إلى القاهرة، وأقام فيها نحو سنةٍ عمل في أثنائها في مجلة **المصوّر** وفي إذاعة «صوت العرب» وكتب في جريدة **الأهرام**.

٤ ـ خضَعَ درويش لأول جراحةٍ في القلب سنة ١٩٨٤ في فيينا. وفي ١٧/٣/١٩٩٨ جاء إلى منزل ليلى شهيد في باريس وعلى محيّاه عوارضُ الإرهاق. فسارعتْ شهيد إلى تنبيهه إلى أنّه يحتاج إلى كشفٍ طبيّ، فرفض قائلاً إنّ الأمر لا يستحقّ زيارةَ الطبيب. غير أنّها ألحّتْ عليه، بل أرغمتْه على الانتقال إلى المستشفى. وفي المستشفى اكتشف الأطبّاءُ أنّه كان مشْرفًا على الموت، فسارعوا إلى إجراء عمليةٍ له في ١٩/٣/١٩٩٨، وبقي عدّة أيام على تخوم النهاية في غرفة العناية الفائقة. وكانت خاتمة مطافه العملية الجراحية في هيوستن في سنة ٢٠٠٨.

كان عرفات نبيّ التيه الفلسطيني، وحبش نبيّ الأمل ربّما، لكنّ درويش صنع فلسطين كأبهى ما تكون البلاد.

المدينة والشاعر

في كتابه النثري المدهش **ذاكرة للنسيان** الذي كرّسه لحصار بيروت في سنة ١٩٨٢ يقول: «أنا لا أعرف بيروت. ولا أعرف إنْ كنتُ أحبّها أمْ لا أحبّها... [هي] للسياسيّ المهاجر كرسيٌّ لا يتغيَّر ولا يتبدّل... وللتاجر المهاجر فرصةُ التأكّد من أنّ ريح الخمسينات، التي وَعَدتْ فقراءَ العرب بشيءٍ ما، لن تمرّ من هنا. وللكاتب الذي ضاقت به بلادُه أو ضاق بالحرية في أن يعتقد أنّه حرّ...، وللشاعر السابق إمكانيةُ الحصول على مسدّس وحارس ومال، فيتحوّل إلى زعيم عصابة يغتال ناقداً ويرشو آخر... وللفتاة المحافظة القدرةُ على إخفاء الحجاب في حقيبة يدها، والاختفاء مع عشيقها في فندق. وللمهرِّب أن يهرِّب، وللفقير أن يزداد فقرًا... أهي مدينةٌ أمْ قناع؟ منفًى أمْ نشيد؟». ويضيف: «منذ عشرين سنين أقيم في بيروت. أحاول أن أفهم بيروت فأزداد جهلاً بنفسي.... إذا رأيتَ النيل فهذا يعني أنّك في القاهرة. أما هنا [في بيروت] فإنّ صوت الرصاص هو الذي يدلّ على بيروت. صوت الرصاص أو صراخ الشعارات على الجدران. هل هي مدينة أمْ مخيّم شوارع عربية وُضعتْ بلا ترتيب؟». إنّها:

«أسواق على البحر»

«اقتصاد يَهْدم الإنتاجَ كي يبني المطاعم والفنادق»

«تفّاحةٌ للبحر، نرجسةُ الرخام»

«هندسةُ الخراب»

«زنبقةُ الحطام»

(قصيدة «بيروت،» من حصار لمدائح البحر)

بيروت مدينة البدايات

جاء درويش إلى لبنان في زمنين متنافرين: الزمن **الأول** حين لجأ مع عائلته في سنة ١٩٤٨، فاجتاز مسافة الطريق ماشيًا من البروة في قضاء عكّا إلى رميش في جنوب لبنان، ونام عند البركة القذرة، بالقرب من الخنازير والأبقار، وقطف التوتَ في صور، ثم ترحّل مع أهله صوب جزّين. وفي جزّين رأى الثلجَ أولَ مرة، ورأى الشلاّلَ أولَ مرة، ورأى التفّاح يتدلّى من أغصان الشجر أولَ مرة (فقَبْلَ ذلك كان يتخيّل أنّه يَنْبت في الصناديق). ومن جزّين ذهب إلى الدامور التي لا يتذكّر فيها إلاّ البحرَ وبساتينَ الموز. وفي بيروت التي هبط إليها مع جدّه، ركب الترامواي أولَ مرة، وضاع فيه إلى أن عاد الترامُ إلى محطّته الأولى، فاحتضنه جدُّه الذي ظلّ ينتظره في محطة الانطلاق بلهفةٍ ووجيفِ قلب. أما الزمن **الثاني** فهو سنة ١٩٧٢ حينما جاء إلى بيروت شاعرًا تَسْبقه أشعارُه؛ وكان أول ما فعله، بعد أن علّق ثيابَه في الفندق، هو أنّه نزل إلى الشارع، وأوقف سيارة أجرة، وقال للسائق: «خذني إلى الدامور.»

أولُ إطلالةٍ شعريةٍ له في بيروت كانت على مسرح قصر الأونيسكو مع خليل حاوي وبلند الحيدري ونزار قبّاني ومحمد الفيتوري، وفيها قرأ «سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا.» ثم تتالت أمسياتُه في كليّة الآداب في الجامعة اللبنانية، وفيها قرأ «تلك صورتُها وهذا انتحارُ العاشق،» وفي كلّيّة الحقوق بالجامعة نفسها، وفيها

قرأ «أحبُّكِ أو لا أحبُّكِ،» وفي كلية التربية أيضًا. وكانت الجامعة اللبنانية معقلاً للحركة الوطنية اللبنانية المتحالفة مع الثورة الفلسطينية. وقد أكسبتْه هذه الأمسياتُ، التي كان يحتشد فيها الناسُ بشدة، حضورًا لامعًا، ومنها انطلق ليصبح الشاعرَ العربيَّ الأبرز والاسمَ الأكثرَ شهرة.[1]

منحتْه بيروتُ فضاءً معرفيّاً لم يكن متاحًا له في القاهرة أو دمشق. ففيها كانت المعاركُ ناشبةً بين قصيدة النثر وقصيدة التفعيلة. ومع أنّ مجلة **شعر** كانت توقّفتْ في تلك الأثناء، إلاّ أنّ أدونيس كان ما يزال يهزّ الثقافة هزّاً، ولاسيما بعد كتابه **الثابت والمتحوّل**.[2] وكانت بيروت، آنذاك، تحتضن نزار قبّاني وبلند الحيدري ومحمد الفيتوري، علاوةً على خليل حاوي وأنسي الحاج وشوقي أبو شقرا ويوسف الخال وغيرهم. وفي بيروت بدأتْ رحلتُه الشعريةُ التي تجاوز فيها «سجِّلْ أنا عربي» إلى آفاقٍ شعريةٍ جديدة. وكانت قصيدتُه «سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا» باهرةً في ذلك الزمان، ولعلّها القصيدة التي وضعتْ قدميْه بقوةٍ على خطّ التجديد الشعري. ومع ذلك لم تصنعْ بيروتُ من محمود درويش شاعرًا كبيرًا، تمامًا مثلما لم تَصنعْ من نزار قباني أو محمد الفيتوري أو محمد الماغوط أو عمر أبو ريشة أو أدونيس شعراء كبارًا. هؤلاء جاؤوا إلى بيروت شعراء حقيقيين، وكانوا قَطَعوا شوطًا طويلاً في الشعر، غير أنّ بيروت منحتْهم جميعًا مناخًا أدبيّاً ونقديّاً أثرى العمليةَ الإبداعيةَ لديهم، وحفّزتهم المدينةُ، بقوة الاحتكاك والنقد والسجال والمنافسة، على التجريب والتجاوز. وهذا هو معنى أن تكون بيروت مدينةً للإبداع والحرية.

اللافت في التجربة الشعرية لمحمود درويش في بيروت أنّه لم ينخرطْ في «الأحزاب الثقافية» اللبنانية، ولم يتحزَّبْ لمجلة الآداب مثلاً في مواجهة مجلة **مواقف** أو مجلة **الطريق**، فكان على صلةٍ ثقافيةٍ بالمجلات الثلاث معًا.

وداع التعب والذهب والأندلس والشام

عاش درويش في لبنان عشر سنواتٍ كاملة، لعلّها الأغنى ثقافيّاً في مسيرة عمره، وإنْ لم تكن الأغنى شعريّاً. لم يغادرها مع المقاتلين في سنة ١٩٨٢، بل أصرَّ على وداعها بطريقته الخاصة، فغادرها وحده (بمساعدة صديق) إلى طرابلس، ومنها إلى دمشق.[3] وقد كرّس لبيروتٍ كتابة **ذاكرةٌ للنسيان**، وأهداها واحدةً من أجمل قصائده وأكثرها شهرة هي «مديح الظل العالي» التي يقول فيها: «بيروتُ من تعبٍ ومن ذهب/وأندلسٍ وشام/بيروتُ خيمتُنا/بيروتُ نجمتُنا/بيروتُ زنبقةُ الحطام.»

ثم عاد درويش ثانيةً إلى بيروت في سنة ١٩٩٩، بعدما طوت معاركَها العبثية. ومنذ ذلك الوقت لم ينفكّ عن هذه المدينة في زيارات متلاحقة. وفي أرجائها استقبلتْه بيروتُ بالحبّ وأمسيات الشعر وأماسي الأحبّة، والعواطف التي تفور من العيون الوالهة لصبايا لم يعرفن شهوةَ الشعر إلاّ من بين أصابع محمود درويش. وقد هيّأتْ له بيروت متنفَّسًا لبعضِ ما يقلقه، ومنحتْه ألقًا يليق بواحدٍ من أعظم شعراء العربية. لكنّ الحياة أخلفتْ وعودَها معه، فأورثتْه قلقًا متماديًا وعلّةً في القلب. وظلّ الموتُ يلاعبه، وهو يلعب به بمهارة «لاعب النرد،» حتى أراح ركابَه أخيرًا، وأدار لنا ظهرَه، وغادرنا إلى حيث يُزار ولا يزورُ، وتركنا ذاهلين نلوِّح له بالمناديل.

بيروت

صقر أبو فخر

كاتب في جريدة **السفير** وسكرتير تحرير **مجلة الدراسات الفلسطينية**.

---

١ ـ في أمسية له في قصر الأونيسكو مع مارسيل خليفة قدّمتُه فيها بنفسي، ارتأى هشام نشّابة (رئيسُ مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية) وباسل عقل (عضوُ مجلس الأمناء) أن يتكلّما. لكنّ الجمهور راح يهمهم ويصفّر ويقاطع احتجاجًا على هذا الكلام؛ فهو لا يريد أن يستمع إلاّ لسيِّد الكلام.

١ ـ بيروت: دار العودة، ١٩٧٤.

٢ ـ الصديق ضابط في الأمن العام اللبناني. والسيارة التي أقلّته إلى طرابلس وضعها في تصرُّفه الشاعر محمد الفيتوري، وكان حينذاك دبلوماسيّاً ليبيّاً.